وعلى هذا يكون سبحانه هو الذى خَزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أنْ هدانا لنبنىَ السدود .

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقطّر ؛ تذهب إلى الصيدلى ليُسخِّن الماء فى جهازٍ مُعيّن ؛ ويُحوّله إلى بخار ، ثم يُكثّف هذا البخار ليصيرَ ماء مُقطّراً ، وكل ذلك يتمّ فى الكون ، وأنت لا تدرى به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وفى ظاهر الأمر كان من المُمْكن أن يقول الحق : « إنّا نُميت ونُحيى » ؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المَحْض الذى أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

والكلام فى تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود ؛ فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق ؛ ثم أوجدنا الله لنكون أحياء ؛ ثم يُميتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذى يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ الحياةَ ، ثم نقضى ما كتبه لنا من أجَل .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) ﴾ [الحجر]

وهذا القول يعنى أن هناك تركة كبيرة ؛ وهى هذا الكون الذى خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُضفْ شيئاً لهذا الكون الذى خلقه الله ؛ لأنك إنْ نظرتَ إلى كمية المياه أو الغذاء التى فى الكون ، وكُل مقومات الحياة لَمَا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص ؛ فالماء تشربه ليرويكَ ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ؛ ومن بعد الموت يتحلّل الجسم ليتبخرَ منه الماء ، وهذا يجرى على كل الكائنات .

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمْر الموت والحياة وعودة الكون فى النهاية إلى مُنْشئه سبحانه ؛ فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران[1] حياة كل موجود ؛ هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كُلِّ الكائنات ؛ فكُلّ شىء له مدة يَحْياها ، وأجلٌ يقضيه .

وكل شىء يبدأ مهمة فى الحياة فهو يُولَد ؛ وكل شىء يُنهى مهمته فى الحياة - بحسب ما قدره الله له - فهو يموت ؛ وإنْ كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعى ذلك .

وهو سبحانه القائل :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ[2] (٨٨) ﴾ [القصص]

---

(١) التعاور والاعتوار أن يكون هذا مكان هذا ، وهذا مكان هذا . يقال : اعتوراه وابتدّاه هذا مرة وهذا مرة . قاله ابن الأعرابى فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب [مادة : عور] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٠٣) : « هذا إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هنا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] أى : إلا إياه .

- وقال مجاهد والثورى : أى إلا ما أريد به وجهه . وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له . وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء » .

إذن : فكُلّ شيء يُطلَق عليه « شيء » مصيره إلى هلاك ؛ ومعنى ذلك أنه كان حياً ؛ ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا نعلم أن كل ما له مهمة فى الحياة له حياة تناسبه ؛ وفَوْر أن تنتهى المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شيء بعد أن يهلك كل مَنْ له حياة ، وهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك ؛ وهو الخالق لكل شيء . ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخَلْق ؛ بأن المخلوق حين يرث آخر ؛ فهو يُودعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك ؛ أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك .

ولذلك نحن نرى مَنْ يعز عليهم ميت ؛ قد يُمسكون بالخشبة التى تحمل الجثة ، ويرفضون من فَرْط المحبة أن تخرج من منزله ؛ ولو تركناه لهم لمدة أسبوع ورمّت الجثة ؛ سيتوسّلون لمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه ليُوارِيه التراب ، ثم يبدأون فى مناقشة ما يرثونه من الفقيد .

وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هى أرغد بالتأكيد من حياته الدنيا ؛ ولَسوفَ يأكل ويشرب دون أن يتعبَ ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهى تتحقّق له ، فهو فى ضيافة المُنعِم الأعلى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ[1] مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والمُستقدم هو مَنْ تقدَّم بالحياة والموت ؛ وهم مَنْ قبلنا من بشر وأُمَم . والمُسْتأخر هو مَنْ سيأتى من بعدنا . وسبحانه يعلَمُنَا بحكم أنه علم من قَبْل كلّ مستأخر ؛ أى : أنه علم بنا من قبل أنْ نُوجد ؛ ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ ؛ فعلْمه كامل وأزلىّ ؛ وفائدة هذا العلم أنه سيترتب عليه الجزاء ؛ فنحن حين أخذنا الحياة والرزق لم نُفلت بهما بعيداً ؛ بل نجد الله قد علم أزلاً بما فعل كل منّا .

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنًى آخر ؛ بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فوْر أن يسمع النداء لها ، ويعلم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٤٢/٥) : « فيه ثمان تأويلات :

١ - المستقدمين : فى الخلق إلى اليوم . والمستأخرين : الذين لم يخلقوا بعد . قاله قتادة وعكرمة وغيرهما .

٢ - المستقدمين : الأموات . والمستأخرين : الأحياء . قاله ابن عباس و الضحاك .

٣ - المستقدمين : من تقدم أمة محمد . والمستأخرين : أمة محمد . قاله مجاهد .

٤ - المستقدمين : فى الطاعة والخير . والمستأخرين : فى المعصية والشر . قاله الحسن وقتادة أيضاً .

٥ - المستقدمين : فى صفوف الحرب . والمستأخرين : فيها . قاله سعيد بن المسيب .

٦ - المستقدمين : من قتل فى الجهاد . والمستأخرين : من لم يقتل . قاله القرظى .

٧ - المستقدمين : أول الخلق والمستأخرين : آخر الخلق قاله الشعبى .

٨ - المستقدمين : فى صفوف الصلاة . والمستأخرين : فيها بسبب النساء . ذكرها القرطبى فى تفسيره (٣٧٤٢/٥) .

مَنْ يتأخر عن القيام بأداء الصلاة ، ذلك أن تأثير كلمة « الله أكبر » فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كُلّ ما يشغلك .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم « الله أكبر » ؛ ولم يَقُلْ : الله كبير ؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا في الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة ؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَان ؛ لأنها المَعْبر إلى الجزاء القادم في الآخرة .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أنْ تُنسَى ؛ وفي نفس الوقت هي أتفه من أنْ تكون غاية ، فأنت في الدنيا تضرب في الأرض وتسعى لِقُوتك وقُوتِ مَنْ تعول ؛ وليُعينك هذا القوتُ على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا ؛ بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يُوفّقه فيها ، وأن يبذلَ كل جَهْد في سبيل نجاحه في عمله ؛ فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء ؛ وفَوْر أن يسمعَ المؤمن « الله أكبر » ؛ فعليه أن يتجهَ إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن يؤدي الصلاة . هذا هو المعنى المُسْتقي من المُسْتقدِم للصلاة والمُسْتأخِر عنها .

وهناك من العلماء مَنْ رأى ملاحظَ شتَّى في الآية الكريمة . فمعناها قد يكون عاماً يشمل الزمن كله ؛ وقد تكون بمعنًى خاص ؛ كمعنى المُستقدِم للصلاة والمستأخِر عنها .

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك ؛ فنحن حين نُصلّي نقف صفوفاً ، ويقف الرجال أولاً ؛ ثم الأطفال ؛ ثم النساء ؛ ومن

الرجال مَنْ يتقدّم الصفوف كَيْلا تقع عيونه على امرأة ؛ ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء ؛ فأوضح الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور لا تفوت عليه[1] ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

أو : أن يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد فى سبيل الله أو المتأخرين عن الجهاد فى سبيله . ومَنْ يموت حَتْف أنفه ـ أى : على فراشه لا دَخْلَ له بهذه المسألة .

أما إنْ دعا داعى الجهاد ، ويُقدِّم نفسه للحرب ويُقاتل وينال الشهادة ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم مَنْ تقدّم إلى لقائه محبةً وجهاداً لرِفْعة شأن الدين .

وقد يكون فى ظاهر الأمر وفى عيون غيره ممَّنْ يكرهون الحياة ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر مُحِبٌ للحياة بأكثر ممَّنْ يدّعون حُبّها ؛ لأنه امتلك اليقين الإيمانى بأن خالقَ الدنيا يستحق أنْ ينالَ الجهاد فى سبيل القِيم التى أرادها منهاجاً ينعدل به ميزان الكون ؛ وإن استشهد فقد وعده سبحانه الخُلْد فى الجنة ونعيمها .

ونجد أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وهو يقول لرسول

---

(١) ورد فى هذا حديث قال عنه ابن كثير (تفسير ابن كثير ٥٥١/٢) « حديث غريب جداً . فيه نكارة شديدة » . وقد ذكره الواحدى فى أسباب نزول هذه الآية (أسباب النزول ص ١٥٨) عن ابن عباس قال : « كانت تصلى خلف النبى ﷺ امرأة حسناء . قال ابن عباس : لا والله ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم » . والحديث مروى فى مسند أحمد وسنن النسائى والترمذى .

الله ﷺ : ادْعُ لى يا رسول الله أن أستشهد ؛ فيردّ عليه النبى الكريم : « متِّعنا بنفسك يا أبا بكر »[1].

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْم ؛ لأن الإيمان يحتاج لمَنْ يصونه ويُثبّته ؛ كما يحتاج إلى مَنْ يؤكد أن الإيمان بالله أعزُّ من الحياة نفسها ؛ وهو المُتقدِّم للقتال ، وينال الشهادةَ فى سبيل الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

أى : أن المُتولّى تربيتك يا محمد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك ، وأهانوك وآذوْكَ دون عقاب .

وكلمة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر]

تكفى كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا البعث ؛ ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكِر الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد سبق وعبَّر عن البعث بقوله الحق :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٤٧٤) أن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق لم يزل على دين قومه فى الشرك حتى شهد بدراً مع المشركين ودعا إلى البراز (المبارزة) فقام إليه أبوه أبو بكر ليبارزه ، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : « متعنا بنفسك » .

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون فى أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتمىّ ، وسبقتْه (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذى يشكُّون فيه ؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل :

﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر]

وسبحانه يُجرى الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة علْماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ[2] ﴿٢٦﴾ ﴾

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلّم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق فى هذه السورة التى تضمنت خبر

---

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) نار السموم : النار الحارة التى تقتل . وقال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٤٦] .

مَدِّ الأرض ؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفية إنزال الماء من السماء ؛ وكيف قَدَّر فى الأرض الرزق ، وجعل فى الأرض رواسى ، وجعل كُلّ شىء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلَّ السورة بقوله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر]

أى : أنه افتتح السورة بالكلام عن حارس القيم للحركة الإنسانية ؛ ثم تكلَّم عن المادة التى منها الحياة ؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المُقوِّم الأساسى للقيم وهو القرآن ، والكلام عن مُقوِّم المادة ؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ ودَلَّلْتُ عليه سابقاً بحديثى عن مُصمِّم أىّ جهاز من الأجهزة الحديثة ؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه ؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كان خَلْق الله للإنسان الذى شاء له سبحانه أن يكون خليفته فى الأرض ، ووضع له مُقوِّمات مادة ومُقوِّمات قيم ؛ وجاء بالحديث عن مُقوِّمات القِيَم أولاً ؛ لأنها ستمدّ حياة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ؛ بل كان هناك خَلْق من قَبْل آدم ، فإذا حدَّثنا علماء الجيولوجيا والحفريات عن أن هناك ما يدل على وجود بعض من الكائنات المطمورة تثبت أنه كانت هناك حياة منذ خمسين ألف قرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة فى زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف فى الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ [فاطر]

أى : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .

ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة فى القرآن الكريم ؛ تُؤدِّى فى مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً فى القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة فى الموقع المناسب لها ؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر ؛ بل كتاب قيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسِّس فى البشر القيم التى تحميهم وتصونهم من أىّ انحراف ، ويريد أن يُربِّىَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان فى الكثير من سُور القرآن : البقرة ؛ الأعراف ؛ الحجر ؛ الإسراء ؛ الكهف ؛ وسورة ص .

قال سبحانه ـ على سبيل المثال ـ فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعةَ خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .

وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء ؛ ومرة من طين ؛ ومرة من صلصال كالفخار ؟

ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهِد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات :

﴿ مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ومن رحمته سبحانه أنه ترك في مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبت صدْقه في غيبيّاته ؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شيء من الماء ؛ فهو صادق فيما قال ؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشرى على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[2] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾

[الحجر]

---

(١) عضداً : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

(٢) سوّى الشيء تسوية : عدّله وجعله لا عوج فيه . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

وكُلُّ هذا من الأمور الغيبية ؛ التى يشـرحها لنا نقضُها فى الواقع المادى الملموس ، فحين يحدث الموت ـ وهو نَقْض الحياة ـ نجد الروح هى أول ما يخرج من الجسم ؛ وكانت هى آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية فى الرحيل عن الجثمان ؛ فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال ؛ ثم يتبخّر الماء من الجثمان ؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد فى الموت ـ نقض الحياة ـ كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهى معكوسة ؛ فالماء أولاً ثم التراب ؛ ثم الطين ؛ ثم الصلصال الذى يشبه الحمأ المسنون ؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا فى النقيض المادى ، ما أبلغنا عنه فى عالم الغيب .

وعلى ذلك ـ أيضاً ـ نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلقَتْ قبل الأرض ؛ وكانت الأرض جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها ؛ على هؤلاء أن يعلموا أن ما يقولونه هو أمر لم يشاهدوه ، وهى أمور لا يمكن أن يدرسها أحد فى معمل تجريبى ؛ وقد قال القرآن عن أهل هذا اللغو :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازية القرآن الذى أسماهُم المُضلِّين ؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هى اللهب الذى لا دُخانَ له ، ويُسمُّونه « السَّموم » لأنه يتلصَّص فى الدخول إلى مسامِّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً فى مُقوِّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نار له صفات النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنْس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التى لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته فى الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد فى الأشياء ؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده علْم بالكتاب على عفريت الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس :

﴿ قَالَ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا[2] قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المتناصرون . [القاموس القويم ٢/ ٩٨].

(٢) العرش : سرير الملك . ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٦٣) : « كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستراً بالديباج والحرير » .